

# الجلادون

بقلم جان بول سارتر  
ترجمة عايدة طرجي دريس

صدر في الاسبوع الماضي في باريس كتاب خطير بعنوان « الاستجواب » La Question كتبه بيار اليغ Pierre Alleg وهو في سجنه بالجزائر وروى فيه فظائع التعذيب التي أخضع لها الجلادون ليستنطقوه عن اسرار تتعلق بالثوار العرب في الجزائر . وقد احدث هذا الكتاب ضجة كبيرة في فرنسا ، وكتب الكاتب الكبير جان بول سارتر مقالا طويلا عنه ما كاد ينشر في « الاكسبريس » حتى صودرت . وفيما يلي ترجمة مقال سارتر الذي سيؤلف فصلا من الكتاب الهام الذي تصدره دار الآداب في آخر هذا الشهر بعنوان : « عارنا .. في الجزائر » وهو مجموع ما كتبه الكاتب الفرنسي الكبير عن الاستعمار الفرنسي الفاشم في الجزائر .

وفارغة ، عندما يحين الوقت ، وان وضعا غير منتظر سي طرح قضيتهم كلهم من جديد ، وان عليهم ان يقرروا هناك ، وحدهم ، مصر فرنسا ومصرهم . وها هم ينهبون واخرون يعودون وقد عرفوا عجزهم فبقي اغلبهم يحتفظون بصمت حقود . ويولد الخوف : من الاخرين ، والخوف من النفس ، فيحتاج جميع الاوساط ، ولا تعود الضحية والجلاد سوى صورة واحدة : انها صورتنا . وفي الحالات القصوى ، فان الطريقة الوحيدة لرفض احد هذين الدورين هي ان نطالب بالآخر .

ان هذا الاختيار لا يفرض - او لم يفرض حتى الان - على فرنسيي فرنسا ، ولكن عدم التحديد هذا يثقل علينا : وبسببه نحن « الجرح والسكين » فالهلع في ان نكون السكين ، والخوف من ان نصبح الجرح كلاهما يتبادلان التأثير والقوة . وتستيقظ ذكريات : فمذ خمسة عشر عاما ، كان اشجع المقاومين يخشون الالم اقل مما كانوا يخشون استسلامهم للام . وكانوا يقولون : حين تسكت الضحية ، فانها تنفذ كل شيء ، وحين تتكلم فليس لاحد الحق في ان يحكم عليها ، حتى الذين لم يتكلموا . ولكن الضحية تتزوج جلادها ، انها امراته ، وهكذا يفرق هذان الزوجان في ليل الحفارة . ولقد عاد ليل الحفارة ، انه يعود الى « البيار » كل ليلة وانه في فرنسا سواد قلوبنا . وبالفعل فان دعاية مهموسسة تتج لنا ان نسمع ان «جميع الناس يتكلمون» . هذه هي الوان التعذيب التي يبررها الجهل الانساني . ما دام كل واحد منا خائنا بالقوة ، فالجلاد الكامن في كل منا يخطيء في ان ينزعج ، لاسيما وان عظمة فرنسا تفرض ذلك .. واصوات متناهية في النعومة تفسر لنا ذلك كل يوم . ان المواطن الصالح ينبغي ان يكون ذا ضمير صالح ، اما صاحب الضمير السيء ، فلا بد ان يكون انهزاميا .

وحالا ما ينقلب الدهول الى ياس . فاذا كان على الوطنية ان ترمينا في حوض الحفارة ، اذا لم يكن هناك اي حاجز في اي مكان لا يمنع في اية لحظة الامم ولا الانسانية كلها من ان تنصب في اللانساني . فلماذا نحن اذن نكلف انفسنا هذا الجهد كله لنصبح او لنظل بشرا ؟ ان اللانساني هو حقيقتنا . ولكن اذا لم يكن اي شيء اخر صحيحا ، اذا كان لا بد من الارهاب او ان نموت من الارهاب ، فلماذا نجهد في ان نعيش وفي ان نبقي وطنيين ؟

لقد وضعوا هذه الافكار في رؤوسنا بالقوة والقسر ، وانها لافكار غامضة وخاطئة . انها تنبثق كلها من هذا المبدأ نفسه : الانسان هو لا انساني .

في عام ١٩٤٢ في شارع لوريستن كان فرنسيون يصرخون من القلق والام . وكانت فرنسا كلها تسمعهم انذاك ولم يكن مصر الحرب اكيدا ولم تكن نود ان نفكر في المستقبل ومع ذلك فان شيئا واحدا كان يبدو لنا مستحيلا . ان يكون باستطاعتنا ان نجعل رجلا يصرخون يوما ما بسبينا . والمستحيل ليس كلمة فرنسية : ففي عام ١٩٥٨ ، يعمد في الجزائر الى التعذيب المستمر المنتظم . والكل يعلم ذلك من السيد لاكوست الى مزارعي لافيرون ، ولا احد يتكلم عن ذلك ، او ان اصواتنا تتلاشى في السكون . لم تكن فرنسا تحت الاحتلال ابكم منها الان ، بالرغم من انها كان لها العذر في ان تحمل السلاح .

ولقد حكم علينا في الخارج : باننا لم نكف عن الانحدار . وقد بدأ ذلك منذ سنة ٣٩ ، في رأي البعض ، وفي رأي الاخرين منذ سنة ٩١٨ . وانه لقول مرتجل : فانا لا اؤمن بهذه السهولة في انهيار شعب . اني اؤمن بفشله وخيله . وفي اثناء الحرب عندما كانت الاذاعة الانكليزية او الصحافة السرية تتحدث عن « اورادور » كنا ننظر الى الجنود الالمان الذين كانوا يتزهون في السوارع نظرة بريئة وكنا نقول احيانا : انهم مع ذلك رجال يشبهوننا ، فكيف يكون باستطاعتهم ان يفعلوا ما فعلوا ؟ وكنا فخورين بانفسنا لاننا لم نكن نفهم .

واليوم نعلم انه ليس هناك شيء للفهم : لقد تم كل شيء بفيلة واستسلامات غير ملحوظة ، وعندما رفعنا رؤوسنا ، رأينا في المرأة وجها غريبا ، بفيضا : وجهدنا .

ان الفرنسيين يكتشفون ، في غمرة دهشهم ، هذه الحقيقة الهائلة : اذا لم يكن هناك ما يحمي امة ضد نفسها لا ماضيها ، ولا اماناتها ، ولا فوائدها الخاصة واذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا الى جلادين ، فذلك لان الظرف هو وحده الذي يقرر : فحسب الظروف يستطيع اي كان وفي اي وقت ، ان يصبح ضحية او جلادا .

سعداء هم اولئك الذين ماتوا من غير ان يضطروا ابدا الى التساؤل « اتراني انكلم ، اذا هم نزعوا لي اظافري ؟ » واكثر سعادة منهم اولئك الذين لم يجبروا وهم لم يكادوا يفارقون الطفولة على ان يتساءلوا هذا السؤال الاخر : « ماذا تراني افعل ، اذا عمد اصدقائي او اخوتي في السلاح ، او رؤسائي الى انتزاع اظافر عدو امام عيني ؟ »

هؤلاء الشباب الذين يوضعون في موقف جرح ، ماذا يعرفون عن انفسهم ؟ القرارات التي يتخذونها هنا ، يحددون انها ستبدو لهم مجردة

وان هدفهم في ذلك، هو اقتناعنا بمجزئنا. وان هذه الافكار تبلغ هدفها مادما لا ننظر اليها مواجهة . والحق انه يجب ان يعرف في الخارج : ان سكوتنا لا يعني قبولنا . انه يأتي من الكوابيس التي يخلقونها ويفذونها وبوجهونها ولقد كنت اعرف ذلك من قبل ولكنني كنت انتظر منذ زمن بعيد دليلا قاطعا .

وهذا هو :

منذ خمسة عشر يوما تقريبا ، ظهر كتاب في « منشورات منتصف الليل » بعنوان « الاستجاب » ومؤلفه هو « هنري البيغ » الذي ما يزال اليوم معتقلا في سجن في الجزائر ، وهو يروي ، من غير تعليقات لا جدوى منها ، وبدقة مدهشة ، « الاستنطاقات » التي تعرض لها . ولقد « اعنى » الجلادون به كما وعدوه بذلك هم انفسهم : فاحضموه لعذاب الماء ، تماما كما كُن ذلك في ايام « البرنفييه » Brinivilliers ولكن يضاف اليه التفتحات التكنيكية التي فرضها عصرنا ، وعذاب النار والعطش الخ . انه كتاب لا ننصح النفوس الحساسة بقراءته . والواقع ان الطبعة الاولى - وهي عشرون الفا - قد نفذت . وبالرغم من طبعة ثانية تمت على عجل فقد عجز الناشر عن تلبية الطلب . فان بعض المكتبات تباع من الخمسين الى المئة نسخة يوميا .

وقد كان الذين يجروون على ان يدلوا بشهادتهم حتى الان هم الذين عاشوا مع اخوتهم واخوتنا : الجلادين . ولم يكونوا يعرفون من الضحايا غالبا سوى صراخاتهم وجراحاتهم والامهم . وكانوا يصفون لنا ساديين منحنيين فوق مزق من اللحم . وما الذي كان يميزنا عن هؤلاء الساديين؟ لا شيء ما دمنا نسكت : وكان غضبنا يبدو لنا صادقا . ولكن هل كنا نحفظ به لو

كنا قد عشنا هناك؟ اما كان يخلي مكانه للقرف العالمي ولاستسلام كئيب ؟ وقد كنت من جهتي اقرأ لان الواجب يحتم علي ذلك . وكنت انسر احيانا وكنت احتقر هذه القصص التي كانت تضعنا في قفص الاتهام من غير شفقة والتي لم تكن تترك مجالا للامل .

اما مع هذا الكتاب « الاستجاب » ، فان كل شيء يتبدل : ان « البيغ » يوفر علينا اليأس والخجل لانه ضحية ولانه قد قهر العذاب . وهذا الارتداد لا يتم من غير روح فكاهية حزينة . لقد عذبوه باسمنا ، واننا لنسترد بسببه بعضا من فخرنا : اننا فخورون بان يكون فرسنا . ان القراء يتجسدون فيه بشغف ، ويرافقونه حتى نهاية الالم ، ويصمدون واياء ، وحيدين وعراة . اتراهم جديرين ، اترانا جديرين بذلك حقنا وحقيقة ؟ تلك هي مسألة اخرى ، المهم الذي يعتد به ، هو ان الضحية تحرنا اذ تجعلنا نكتشف ، كما نكتشف هي نفسها ، اننا نستطيع ويجب ان نتحمل كل شيء .

اننا ننبر ونسحر على هوة الانساني . ولكن يكفي رجل قاس وعنيد ومصر على ان يقوم بمهنته كانسان لينتقنا من الدوار . ان « الاستجاب » ليس لا انسانيا . انه بكل بساطة جريمة ذنبة وخليعة يرتكبها بشر ضد بشر اخرين . وباستطاعة سواهم ومن واجبه ان يقضوا عليها . ان الانساني لا يوجد في اي مكان ، الا في الكوابيس التي يولدها الخوف . والحق ان شجاعة ضحية هادئة وتواضعها ، وصفاءها توقظنا لنكتشف عن حقيقتنا . ان « البيغ » ينتشل التعذيب من الليل الذي يطمسه . فلتقترب لننظر اليه في وضخ النهار .

ما هؤلاء الجلادون اولا ؟ اهم ساديون ؟ ام هم ملائكة غاضبون ؟ ام هم اسياذ حرب ذوو اهواء مرعبة ؟ ان كان علينا ان نصدقهم ، فانهم خليط من هذا كله . ولكن الواقع ان « البيغ » لا يصدقهم . ان ما ينتج من الاحاديث التي ينقلها انهم يودون ان يقنعوا انفسهم ويقنعوا الضحية بسيادتهم المطلقة : فهم احيانا بشر اعلون يمسون اناسا تحت رحمتهم ، وهم احيانا اخرى رجال قساة اقوياء وكل اليهم امر ترويض اوقح البهائم واشدها وحشية ، واكسلها ، البهيمة الانسانية . ومن المفهوم انهم لا ينظرون اليها عن كئيب : فالهم ان يشعروا السجين بانه ليس من جنسهم : ولذلك يعرونه من بياحه ويربطونه بشدة ويهزأون منه . ويمر جنود بالقرب منه ذهابا واطا ، ينفذونه بسمائم وبسهميات بلا مبالاة يريد ان يكون هائله .

ولكن السخ ، العاري ، المريجف من البرد ، الربوط الى خنبة ما تزال سوداء لزوجه - بسبب فيء قديم ، بعيد هذه الجيل كلها الى حيفيها التي تدعو الى الشفقة : انها تمشيلات بلعها حمى : فمسرحة هي فسوة احاديثهم العاشستية وفسمهم بان « بقضوا على الجمهوريه » ، ومسرحة هي ايضا مسمى « ضابط الجنرال م . م . » هذا المسمى الذي ينهي بهذه الكلمات : « لم يبق لكم الا ان نتحروا » انها مهازل سمجة ، جامدة يعاد تمثيلها كل ليلة من دون اقتناع امام كل سجين ثم نوقف بسرعة بسبب ضيق الوقت : ذلك ان هؤلاء العمال المرعيين متفنون بالاعمال ، وهم مرهقون لان السجناء يقفون مصطفين بالقرب من خشبة التعذيب ، ولا بد من ربطهم وحلهم ومرافقة الضحايا من غرفة تعذيب الى اخرى . وان من ينظر بعين « البيغ » الى هذه الخلية القذرة ، يدرك ان الجلادين مرهقون بالعمل كل الارهاق . وقد يحدث بالطبع ان يتظاهروا بالهدوء وان يشربوا البيرة ، وقد تراخوا فوق جسد معذب ، ثم يقفزون فجأة على اقدامهم ويركضون في كل اتجاه فيشتمون ويزارون من الغضب . انهم عصبيون من طراز رفيع يخضعون ضحايا كثيرة ويمتقدون انهم

## دار الآداب تقدم

### مؤلفات الدكتور

#### نوال السعداوي

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الارض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الاطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقا
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الاضعف

بمناسبة يوم الجزائر في البلاد الافريقية والاسيوية

بسر دار الآداب في بيروت ان تقدم الكتاب الخطير:

## عارنا... في الجزائر!

بقلم الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر  
وفيه يفضح الاديب الحر اساليب الاستعمار  
والتعذيب والتضليل التي تستعملها السلطات  
الفرنسية في الجزائر العربية الباسلة  
ترجمة عايذة وسهيل ادريس

احجز نسختك من الان

وفي هذه القضية ، لا يمتد بالافراد : فان هناك حقدا تائها ، مفعلا ،  
حقدا جذريا في الانسان ينقض في وقت واحد على الجلادين وعلى  
الضحايا فينحط بهم معا ويحط بعضهم بسبب بعض . وليس العذاب  
الا هذا الحقد وقد اندرج في نظام وخلق لنفسه وسائله الخاصة .

وحين يقال ذلك بحياء في المجلس الوطني ، تنفجر الضجة : انكم  
تهينون الجيش ! « وينبغي ان نسال مرة اولى واخيرة هؤلاء الكلاب  
الصغيرة : « ما دخل الجيش هنا » ؟ ان ما هو مؤكد ان التعذيب يقوم  
ايضا « في الجيش » وان « لجنة الوقاية » لم تخف ذلك في تقرير لها  
هزيل ، وبعد ذلك اهو « الجيش » الذي يعذب ؟

اية حماقة ! ايظنون المدنيين يجهلون الطرق الصالحة ؟ اذا لم تكن  
القضية الا هذا ، فلنمنح شرطة الجزائر ثقتنا . ثم اذا كان هناك حاجة  
الى رئيس جلادين ، فلقد عينه المجلس الوطني كله : ليس هو الجنرال  
« س » كما انه ليس الجنرال « د » ولا الجنرال « م » الذي ذكره  
البيغ : بل هو السيد لاكوست صاحب السلطات المطلقة . فكل شيء يتم  
من خلاله وبواسطته ، سواء « بون » او في « وهران » : ان جميع الناس  
الذين مانوا من الالم والوهول في مبني « البيار » وفي مقصورة « س » ،  
انما مانوا بارادته . ولست انا الذي يقول ذلك : انهم النواب والحكومة.  
والواقع ان القرع يمتد ، فهو قد تجاوز البحر ، بل لقد شجاع ان  
الاسجواب يقوم في بعض السجون المدنية في فرنسا ذاتها . ولا ادري اذا  
كانت الشائعة حقيقية ، ولكن لا بد ان انتشارها قد اثار السلطات العامة،  
بدليل ان النائب العام ، في قضية ابن صدوق قد سأل المتهم جهرا اذا كان  
قد عذب ، وقد كان الجواب بالطبع معروفا مسبقا .

لا ، ليس التعذيب مدنيا ولا عسكريا ولا فرنسيا على وجه التخصيص.  
انه وباء يتكسح العصر كله . فقد عرف الشرق والغرب جلادين : فلم  
يمض وقت على تعذيب « فاركاس » للهنغارين ، ولا يخفي البولونيون ان  
الشرطة عندهم كانت تعمد ، قبل بوزنان ، الى الاستجواب . اما ما كان  
يحدث في الاتحاد السوفياتي في حياة ستالين فان تقرير خرونشيف شاهد  
لا يرد على ذلك ... واليوم اتى دور قبرص والجزائر . والواقع ان هتلر  
لم يكن الا رائدا في هذا كله .

هذا التعذيب الذي يشجب - بميوعة احيانا - ولكنه يطبق بانتظام

سيصرفون من « الرخصة الاولى » .

اما ان يكونوا خبثاء مجانيين من الفضب، فهذا اكيد، ولكنهم ليسوا ساديين.  
انهم مستعجلون جدا ، وهذا ما ينقدهم حقاً. ان كلا منهم يتماسك على قدميه  
من جراء السرعة المكتسبة ، فعليه ان يعدو باستمرار او ينهار .

غير انهم يحبون العمل المتقن . انهم عند اللزوم يدفعون بالضمير المهني  
الى درجة ارتكاب القتل . وهذا ما يثير في قصة « اليغ » . ان وراء هؤلاء  
المشرحين الشرسين او المضحكين صلابة تتجاوزهم وتتجاوز رؤساءهم  
انفسهم .

ولقد كان من الممكن ان يكون حظنا كبيرا لو كانت هذه الجرائم عمل  
قبضة من الحانقين ولكن الحقيقة هي ان التعذيب ينتج الجلادين . وبعد هذا  
كله ، فان هؤلاء الجنود لم يكونوا قد انخرطوا في فرقة من النخبة ليعذبوا  
العدو المهزوم . ويصف لنا اليغ في بضعة خطوط اولئك الذين عرفهم ،  
وهذا يكفي لتسجيل مراحل التعذيب :

هناك الجلادون الاصغر سنا ، العاجزون الذين يمتنون باضطراب « هذا  
فطبع » عندما يضيء مصباحهم الكهربائي معذبا ما . ثم هناك مساعده الجلادين  
الذين لم يشتركوا بعد بالعمل ، وهم بمسكون بالمساجين ونقلونهم، وبعضهم  
قد قسا، وبعضهم ينتظر . ولكنهم جميعا قد اخذوا في الدوامه، وليس لهم عذر  
قط . وهناك ذلك الاشقر من المنطقة الشمالية « ذو الوجه الودود الذي  
يستطيع ان يتحدث عن جلسات التعذيب التي اخضع لها « اليغ » كما  
لو كان يتحدث عن مباراة يذكرها ويهناؤها من غير مشقة : كما يفعل  
بالنسبة لبطل من راكبي الدراجات . . . » ولقد رآه « اليغ » بعد ايام  
يقتل على السلم احد المسلمين ، ووجهه ينبض بالحقد والكراهية . . . »  
وهناك يتسلون برؤية الانتفاضات التي تعرو معذبا بالكهرباء، ولكنهم لا  
يحتلمون ان يسمعوه يصرخ . وهناك اخيرا المجانين الذين يتطوفون  
ويدورون كورقة ميتة في دوار فورانهم وعنفهم .

وليس في هؤلاء جميعا من هو موجود بذاته ، وليس فيهم من سيبقى  
كما هو : انهم يمثلون لحظات تبدل لا مفر منه . فهناك فرق واحد بين  
افضلهم وبين اسوأهم : فاولئك هم « زرق » وهؤلاء قدامى . وسينتهي  
الامر بهم جميعا الى ان يرحلوا ، واذا استمرت الحرب فسيخلفهم اخرون،  
شقر من الشمال ، او سمر قصار من الجنوب ، يقومون بالمهنة نفسها  
ويمتادون العنف نفسه والمصيبة ذاتها .

خلف ستار المشروعية الديمقراطية يمكن تعريفه بأنه مؤسسة نصف سرية . فهل اسبابه واحدة في كل مكان ؟ عن الضيق نفسه . والحق انه لا اهمية لذلك ، فليس لنا ان نحكم على العصر . ولتكتف بان نكس امام بابنا ، ولنحاول ان نفهم ما الذي وقع لنا ، نحن الفرنسيين .

انكم تعرفون ما يقال احيانا لتبرير الجلادين : من انه لا بد من تعذيب انسان ما يمكن لاعترافاته ان توفر مئات من الارواح . وهذا نفاق واضح . فان «الليغ» لم يكن ارهابيا ، وكذلك « اودين » . وذلك انه معتقل بتهمة « تعريض امن الدولة واعادة تشكيل جمعية محلولة » .

افمن اجل انقاذ ارواح بشرية احرقوا له ثدييه وشعر عضوه التناسلي؟ لا : لقد ارادوا ان ينتزعوا منه عنوان الرفيق الذي آواه . ولو قد تكلم ، لوضعوا شيوعيا اخر وراء القضبان الحديدية : هذا كل ما في الامر .

ثم انهم يعتقدون هنا وهناك بالمصادفة ان كل مسلم « قابل للاستجواب » طوعا : الا اذا قدموا شهادة كاذبة او انهموا انفسهم مجانا بجريمة مسا تخلصا من العذاب . اما اولئك الذين يستطيعون ان يتكلموا ، فمن المعلوم انهم يصمتون . كلهم او جلهم ، فلا « اودين » ولا « الليغ » ولا « غروج » قد فتحوا افواههم . ولا شك ان جلادي «البيار» اوسع معرفة منا فسي هذا الصدد . وقد لاحظ احدهم بعد الاستجواب الاول « لاليج » : « لقد كسب ليلة على كل حال ليتيح لرفاهه الوقت الكافي للانسحاب » . وقال ضابط بعد بضعة ايام : « لقد استقر في رؤوسهم منذ عشر سنوات ، منذ خمس عشرة سنة انهم اذا قبض عليهم ، فيجب الا يقولوا شيئا : وليس هناك ما يعمل لنزع هذا التصميم من رؤوسهم . »

لعله لم يكن يقصد الا الشيوعيين : ولكن ابراهم يظنون ان مقاتلا في جيش التحرير الوطني هو من غير هذه الطينة ؟ ان اعمال النصف هذه لا تعود الا بنتائج سيئة ، ولقد افشع الاملان انفسهم بذلك عام ١٩٤٤ . انها تكلف ارواحا بشرية ولا يوفروا ارواحا اخرى .

ومع ذلك ، فان الحجة ليست مخطئة تماما : وهي على كل حال نلعي لنا ضوءا على رساله التعذيب : ان الاستجواب الذي هو مؤسسة سرية او نصف سرية ، مرتبط ارتباطا وثيقا بسرية المقاومة او المارضه .

وفي الجزائر انشر جيشنا في الاراضي كلها : فنحن نملك العمد والمال والاسلحة ، اما الثوار فلا يملكون شيئا الا الثقة وبناييد قسم كبير من الشعب لهم ، ولقد عرفنا ، بالرغم منا الخطوط الرئيسية لهذه الحرب الاهلية : اغتيالات في المدن ، وكمان في الريف ، ولم نخز جبهة التحرير الوطنية نشاطاتها ، وانما هي بفعل ما تطيق فعله ، وهذا كل ما في الامر ، وان نسبة قواها الى قواها يجبرها على ان نهاجمنا هجمات فجائية ، فدلينا ان لا ترى ولا ننظر ولا نمس اذ تضرب وتختفي خشية ان يفضي عليها . ومن هنا ينبع ضيقنا : اننا نصارع خصما سريرا ، فهذه يده تلقي قنبلة في شارع ، وتلك طلقة بندقية تجرح جنديا من جنودنا في الطريق ، فاذا سارعنا لم نجد احدا . وفيما بعد ، لا بد ان يعثر على مسلمين لم يروا شيئا . ان الامسور مترابطة ، ان الحرب الشعبية ، حرب الفقراء ضد الاغنياء ، تتميز بالصلة الوثيقة التي تشد بين الوحدات الثائرة وبين الشعب ، وفي الوقت نفسه يصبح هذا الفيض من البؤساء بالنسبة للجيش النظامي والسلطات المدنية ، العدد اليومي الذي لا يعد ، وتقلق فرق الاحتلال من صمت اخرس انتجته هي نفسها ، وتدرك ان هناك ارادة للصمت لا يمكن الامساك بها ، سرا دائرا حاضرا في كل مكان ، ويشعر الاغنياء بانهم مطاردون وسط فقراء لا يتكلمون ، وتجت « قوى الامن » نفسها مرتبكة بقدرتها بالذات ، عاجزة عن مواجهة العمليات الحربية

الصفيرة ، الا بالتنظيف والتكنيس وبعثات الانتقام ، وعن مواجهة الارهاب الا بالارهاب . على ان هناك شيئا خفيا : يجب الاستجواب والاستنطاق في كل مكان .

ان التعذيب غضب لا طائل تحته ولده الخوف : يراد انتزاع سر الجميع من حلق يصعد الصرخات ويقيء الدم . وانه لعنف لا جدوى منه : فسواء تكلمت الضحية او ماتت تحت الضرب ، فان السر الذي لا حصر لعنده موجود في مكان اخر ، دائما وابدا ، بعيد عن المتناول . . وهنا يتقلب الجلاد الى سيزيف : فان عليه اذا طبق الاستجواب ان يبدأ دائما من جديد .

ولكن حتى هذا الصمت وهذا الخوف وهذه الاخطار التي لا ترى فط وهي حاضرة ابدا لا يمكن ان تشرح سبب ضراوة الجلادين وارادتهم في ان يسوقوا ضحاياهم الى الحفارة ومن ثم الى الحقد البشري اذا استولى عليهم على غير رضاهم .

ان يتقاتل الناس : تلك هي القاعدة : فهم قد تحاربوا ابدا من اجل مصالح جماعية او فردية ، اما في التعذيب ، هذه المباراة الفرية ، فانما يقيس الجلاد نفسه بالضحية من اجل صفة الانسان ، وكل شيء يحدث كما لو انهما لا ينتميان معا الى الجنس البشري .

ان هدف الاستجواب لا يقتصر على اجبار الضحية على الكلام وعلى الخيانة : بل على الضحية ان تشير الى نفسها بالصراخ والخضوع على انها بهيمة بشرية . في عيون الجميع وفي عينيها بالذات . يجب على خيانتها ان تحطها وتخلص المجتمع منها الى الابد . وان من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط قسره على الكلام ، وانما هو قد دفع الى الابد بصفة كونه : اقل من انسان .

ولا شك في ان تعميم هذا الشرط صفة من صفات هذا العصر . ذلك ان الانسان بحاجة الى ان يصنع ، ان ارادته في ان يكون حرا لم تكن في اي وقت اقوى منها الان ولا اعمق رعبا ، وكذلك الاضطهاد لم يكن اعنف ولا افك سلاحا .

والمفارقات في الجزائر غير قابلة للتخفيف : ان كلا من الفريقين المتصارعين يطالب بطرد الفريق الاخر بصورة جذرية . ولقد سلينا المسلمين كل شيء ثم حرمانا عليهم كل شيء ، حتى استعمال لغتهم الخاصة . وقد اوضح « ميمي » كيف ان الاستعمار يتحقق بالفناء المستمرين (بفتح الميم) انهم لا يملكون بعد شيئا ، وليسوا هم بعد احدا . لقد صفينا حضارتهم فيما منعنا عنهم حضارتنا . كانوا قد طلبوا الانضمام فقلنا لهم لا ونحن نسائل : باية معجزة ترانا نستبقي الاستقلال الاستعماري اذا كان المستعمرون يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها المستعمرون ؟ ان النظام المتبع كان يدفعهم ، وهم البؤساء الجهلة المحتاجون للفداء ، الى تخوم الصحراء ، والى آخر حدود الانساني دفعا لا شفقة فيه ، وقد كان مستوى حياتهم ، بسبب ازدياد المواليد ، ينحدر من سنة الى سنة . وحين دفعهم الياس الى الثورة ، فلنا ان عليهم ، هؤلاء اللابشر ، ان يموتوا او ان يوكدوا انسانيتهم ضدنا : فاذا هم يطرحون قيمنا وثقافتنا وتفوقنا الزعوم ، واستوى عندهم ان يطالبوا بصفة الانسان وان يرفضوا الجنسية الفرنسية .

ولم يقتصر هذا التمرد على تحدي سلطة المستعمرين ، وانما هم قد

شعروا بانهم مهددون بوجودهم ذاته . ان هناك حقيقتين متكاملتين وغير منفصلتين في نظر معظم الاوروبيين الفاطنين في الجزائر : ان المستعمرين هم ذوو حق الهي ، والسكان الاصليون هم دون البشر . وتلك هي ترجمة اسطورية لواقع حقيقي ، ما دام غنى الاولين يرتكز على بؤس الاخرين . وهكذا يجعل الاستغلال المستغل تبعا للمستغل . ثم ان هذه التبعية ، على صعيد آخر ، هي في صميم النزعة العرقية ، وذلك هو تناقضها العميق وشرها المرير : ان الاوروبي الجزائري يرى ان كونه انسانا يعني قبل كل شيء انه متفوق على المسلم .

فاذا حدث ان وكد المسلم نفسه كإنسان يساوي المستعمر ، فماذا تراه يكون الموقف ؟ ان المستعمر يشعر انه قد مس في كيانه ، وانه قد انتقص من قدره وهبطت قيمته ، وهو لا يرى في دخول هؤلاء الى العالم البشري نتائج اقتصادية فحسب ، بل ان هذا الحادث يزري به لانه يعلن له سقوطه الشخصي . وقد يتفق له ، وهو في غضبه ، ان يحلم بالاجتثاث ولكن ذلك لا يعدو ان يكون حلما شعريا محضا . انه يعلم ذلك ، وهو يعرف تبعية الاخر له ، فما عساه يفعل من غير عمال من السكان الاصليين ، من غير ايد عاملة رخيصة ، من غير بظالة مستندمة تتيح له ان يفرض الرواتب التي يشاء ؟ وبعد ذلك ، اذا كان المسلمون حقا من البشر ، فقد ضاع كل شيء ، ولم يبق ثمة حاجة حتى الى اجتنائهم . كلا ، بل ان ما يتطلب السرعة ، اذا كان الاوان لم يفت بعد ، هو ان يذلوا ، وان تنتزع العزة من قلوبهم وان يدفعوا الى صفوف البهيمة . سيتدرك للاجساد ان تعيش ، ولكن لا بد من قتل النفوس . وتستولي عليهم حينئذ كلمات : الترويض والتقويم والعقاب : فليس في الجزائر مكان كاف لجنسين بشريين انين ، ولا بد من الاختيار بينهما .

وانا لا ادعي بالطبع ان الاوروبيين في الجزائر هم الذين اخترعوا التعذيب حتى ولا انهم حثوا السلطات المدنية والعسكرية على تطبيقه ، بل على العكس : لقد فرض التعذيب نفسه تلقائيا ، وقد اصبح « روتينا » قبل ان يلاحظ الناس ذلك . غير ان الحقد البشري الذي يتمثل فيه انما يعبر عن العرقية ، لانه انما يراد تهديم الانسان نفسه بكل صفاته الانسانية ، الشجاعة والارادة والذكاء والامانة - الصفات نفسها التي يطالب بها المستعمر . ولكن اذا استنخف الفصّب بالاوروبي الى درجة ان يحتقر صورته نفسها ، فذلك لان عربيا قد عكس هذه الصورة .

وهكذا يبدو من هذا الزوج الذي لا ينفصل ، المستعمر والمستعمر الجلاذ والضحية ، ان الثاني ليس الا تبعا للاول . مما لا ريب فيه ان الجلاذ ليسوا مستعمرين ، ولا المستعمرين جلاذيين . فان هؤلاء هم على الغالب شبان يأتون من فرنسا وقد عاشوا عشرين عاما من حياتهم من غير ان يهتموا بالمسألة الجزائرية . ولكن الحقد كان هناك حقلا للقوى المغنطيسية ، فجذبهم واخترقهم واستعبدهم .

ان هذا كله انما يوحى به ما في قضية « اليغ » من بصيرة هادئة واعية . فاذا لم يكن يحمل شيئا اخر ، فينبغي ان نحفظ له عرفانا عميقا بالجميل . غير انه قد اتى باكثر من ذلك ، فهو حين اخاف جلاذيه ، انما نصر انسانية الضحايا والمستعمرين ضد العنف المجنون الذي ينطوي عليه بعض العسكريين ، وضد عنصرية المستعمرين . وارجو الا تعني كلمة « ضحايا » هذه نوعا لا افهمه من الانسانية الباكية : ان « اليغ » وسط

هؤلاء القواد الصغار الفخورين بشبابهم ويقوتهم ويمددهم هو الوحيد الصامد ، الوحيد القوي حقا . وبوسعنا نحن ان نقول انه دفع اغلى ثمن من اجل حق بسيط ، من اجل ان يظل انسانا بين البشر . ولكنه لم يفكر بذلك . ولهذا نهتز بالغ الاهتزاز لهذه العبارة التي وردت في نهاية فصل من فصول كتابه :

« واحسستني فجأة فخورا وفرحنا بانني لم استسلم ، وكنت على يقين من انني سأقاوم مرة اخرى اذا اعدوا الكرة ، وسأجادد حتى النهاية ، وانني لن اسهل لهم مهمتهم بان اعمد الى الانتحار . »

اجل انه انسان صلب جلود انتهى به الامر الى بث الخوف في نفوس ملائكة الفصّب .

ان شهادة « اليغ » تبعد اوهامتا : لا ، انه لا يكفي ان تعاقب بعض الافراد او نعبد تربيتهم ، ولن نستطيع اسئنة حرب الجزائر ، فقد قام فيها التعذيب تلقائيا ، وادت اليه الظروف وعمقته النمرات العنصرية . . واذا كنا نود ان نضع حدا لهذه الاعمال الوحشية القذرة الكثيرة ، وان ننقذ فرنسا من العار وننقذ الجزائريين من الجحيم ، فليس امامنا الا وسيلة واحدة : ان نفتح المفاوضات ونعقد السلام .

## جان بول سارتر

ترجمة عائدة مطر جي ادريس

**صدرت حديثاً**

**المجموعة الكاملة**

**للشاعر خليل حساوي**

**المجلد الأول** من مجيّم الكوميديا

**العقد الحريج**

اسم جديد هو اليوم مبدأ مرحلة جديدة حاسمة... ان الكثيرين من الشباب الجدد اليوم يعيشون مواهبهم من خلال شعره وطريقته .

**علي الجندي**

خليل حاوي هو الشاعر الوحيد الذي لغت نظري في العالم العربي . انه شاعر له "قد وحد" . . . . وهذا شيء نادر الوجود عند شعراء الغرب والشرق المعاصر .

**بيتر باخمان**

ابرع الشعراء المحدثين في ابراز وظيفة الرموز ، وأحرصهم على البناء المتكامل . الشعر عنده مواقف استشهادية يقضي احدها الى الآخر .

**احسان عباس**

ويعود الشاعر الى ممارسة وظيفته الاصلية الاولى . . حين يكتشف بحدسه حاضر الحضارة ومستقبلها ، ويعود مجددا نبي القوم وكاهنهم وساحرهم وقائدهم السياسي والاجتماعي .

**ريتا عوض**

خليل حاوي . . خالق القصيدة الطويلة في الشعر الحديث . . عشرته صعبة على البعض لانه لا يجامل .

**اديب صعب**

يتحول "شعر خليل حاوي" الى كيان موضوعي مستقل عن صاحبه . . هذا الكيان هو أرقى مراحل الخلق الفني .

**غالي شكري**

**من منشورات دار العودة - بيروت**